القطـــن

قديمـا فـى مصـــــر

محمد فهمى عبد الباقـى

هدف هذا المقـال بحث مدى معرفة مصر القطن قديما ، حيث كان من الشائع المعروف حتى وقت قريب أنها لم تعرفه زراعة أو صناعة أو تجـارة ، وهذا على الرغم من رصيدها الحضارى الهائل ، ومساهمتها الكبيره فـــى تجارة العالم القديم ، وخاصة أن الحضارات الأخرى عرفته بشكل مـــــن الاشكال (١) .

وأقدم ذكر للقطن ورد من الهند ، التى اعتبرها الد ارسون الموطـــن الأصلى له ، وقد أثبت ذلك الأثريون ، حيث عثروا على عقود وخرز فى جرة فضية ، وكانت هذه الأشياء ملفوفة بقطعة قماش قطنى فى موهنجو د ار و Mohenjo Daro ، مؤرخة فى وقت مبكر جدا من تاريخ الحضارة الهندوسية ، التى بذغ تاريخها فيما بين عامى ٣٢٥٠ ـ ٢٧٥٠ ق٠م ٠

---

(1) Forbes , R. J. Studies in Ancient Technology . Vol.IV. Leiden , 1956. p . 43 ; Prentice, A.N. Cotton with Special Refrence to Africa. London, p.1.

ثم يأتى دليل أدبـــى ، وهو عبارة عن ترنيمة هندو رجيفيدا Hyndo Rigvenda التى تؤرخ بالقرن الخامس عشر ق٠م ، التى ورد فيها ذكـر أن خيوطه فى النول ، ثم قوانين مانو المؤرخة فى القرن الثامن عشر ق٠م ، والتى تبين استخدام القطن فى صناعة الخيط المقدس للبراهما ، وهـــذا يؤكـد وجود القطن ، وزراعته وتطور صناعته فى هذا الوقت ، ومن قبلـــه بزمن طويل (٢)

وكذلك أيضا نجد أن المؤرخ اليونانى هردوت (٤٨٤ ـ ٤٠٢ ق٠م) كتب قائلا أنه " توجد أشجار تنمو بالطبيعة هناك ـ يقصد الهند ـ ثمارهـــا هو الصوف ، الذى يزيد جماله وجودته عن صوف الأغنام " (٣).

---

(2) Forbes ,op.cit. pp.43,44; Goossens,G. Le Cotton en Assyrie . Annuaire de L institut de Philologie et d'Histoire Orientales et Slave . 12(1952)p.173, Greiss E.A.M.Les plus anciens specimens de tissus et de Fibres de Cotton decouverts en Egypte. Chron. d'Eg. 53(1952)p.321; King,L.W.

τὰ δὲ δένδρεα τὰ ἄγρια αὐτόθι φέρει καρπὸν εἴρια καλλονῇτε προφέροντα καὶ ἀρετῇ τῶν ἀπὸ τῶν ὀίων·

ثم يأتي ثيوفراتس (٣٥٠ق.م) ، فيعطينا أول وصف عن زراعـــة القطن في الهند حيث كتب " ان الأشجار التي يصنع منها الهنود الملابس ، لهـا أوراق تشبه أوراق شجر التوت ، لكن النبات كله يشبه شجر الوردة البلديـــة، يزرعونه في صفوف منتظمه في السهول ، حتى أنها تبدو من بعد كرما ".

An Early mention of Cotton . Proceedings of the Society of Biblical Archaeology . 31(1909) p. 341 ; Lucas, A. Ancient Egyptian Materials and Industries .4 th. ed. London, p.147; Mackey , E. Early Indus Civilization. London 1948 pp .82,105,131,133; Watt,G.The Commercial Products of India,London,1908 pp.570,571.

ويزيد على ذلك قوله أن القطن يمكن أن تراه في الهند وبلاد العرب ، و أن القطن الهندى يحمل حبوبا تستخدم في الزراعة في صفوف أساسية • لكـــــن يبقى د ائما نباتا سنويا (٤) • وقد كتب نيرخوس Nearchus قائد بحرية الأسكندر الأكبر ، عن حملته على شواطئ جنوب آسيا حوالـــــى عام ٣١٧ ق •م تقريرا ورد فيه " توجد أشجار في الهند تحمل ياقات من الصوف يصنع منه الوطنيون ملابس كتانيه (يقصد قطنية) ، لايسين قمصانـــــا تصل الى منتصف الساق ، وملاءات تغطي الأكتاف ، وعمامات تلف الـــرأس والكتان (القطن) خاصة ناعمة ، وأكثر بياضا من أيشيء آخر (٥) .

انتشرت تجارة المنسوجات القطنية من الهند غربا ، حتى أننا عثرنـــــا على قطعة قماش قطني في العراق مختومة بخاتم وادي الهندوس ، جـــــرى اكتشافها من عصورها السابقة على عصورها التاريخية (٦) ، لكن الذى أدخـــل

---

(3) Herodotus , VII. 65. III. 106 .

(4) Theophratus , Hist. Plant.IV.4,8.7.8. IV . 132.

(5) Nearque,Strab.XV.11 20; XIII 25 .

زراعـة القطـن فى العراق هو الملك سنخريب Sennacherib وذلك فيما بين عامى ٧٠٠ ــ ٦٩٤ ق٠م ، ولم يزرع فى العراق قطنا قبـل هذا التاريخ (٧).

كتب هيرودوت أن المصريين " لبسوا ثيابا من الكتان محلاة بهدا ب حـــول الساقين يسمونها كالاسيريس ، ويلبسون فوقها احزمة من الصوف الأبيـــض تتسدل على الكتف ، ولكنهم لايلبسون الملابس الصوفية عند ذهابهم الـــى المعابد ، ولايدفنـون بها (الملابس الصوفية) ، لأن الدين يحـــرم ذلك " (٨). وذكر فى موضع آخر أن ملك مصر امازيس Amasis (المتوفى عام ٥٢٥ ق٠م) ، أهدى فى ساموس Samos ولندوس Lindos درعين للصدر ، كان فى نسجهما كثيرا من الحيوانـــات ، وزخرفة فضفاضة من القطن ، وكان النسيج القطنى رقيقا بدرجة أن الخيـــوط

---

(6) Hatton , J.H. Caste in india , Cambridge 1946 , p.135; Forbes,op.cit. p.44.

(7) King , op.cit pp. 339-343.

(٨) هيرودوت يتحدث عن مصر ــ القاهره ١٩٦٦ ــ ف ٨١

المستخدمه كان الواحد منها يتكون من ٣٦٠ فتلة . (٩).

وعلى الرغم مما كتبه هردوت ، والتى تظهر معرفة المصريين بالقطن ونسيجه ، الا اننا بفحص الرسومات والمنحوتات المصرية القديمه ، نجد أنها خلت من أى اشارة الى القطن ، بينما تظهر اهتمامهم بزراعة الكتان وتنظيف شعره (١٠).

ثم كتب بلينيوس الاكبر (٢٣/٢٤ ـ ٧٩م) " أنه فى الجزء الأعلى من مصر فى اتجاه اقليم العرب ، يوجد شجر يسمى غالبا جوسيبيون Gossypion وفى كثير من الأحيان Xylon ، وتسمى الملابس المصنوعة منه Xlyines ، ولايوجد مثله أى نسيج آخر فى ليونته وبياضه وسهولة ندفه ، ولذلك كان الكهنة المصريون يستحبون صناعة ملابسهم منه " (١١).

---

(9) Herodotus, III, 47 .

(10) Griffith, F.LL.and Mrs. Crowfoot,G.M. On early use of Cotton in the Nile Valley . JEA .,XX. (1934)p.5.

Superior pars Aegypti in Arabiam uergens gignit fruticem quem aliqui gossypion uocant, plures xylon et ideo lina inde facta xylina. Paruus est similemque barbatae nucis fructum defert cuius ex interiore bombyce lanugo netur. Nec ulla sunt cum candore molliora pexioraue. Vestes inde sacerdotibus Aegypti gratissimae.

على الرغم مما كتبه بلينيوس الأكبر ، الذى أوضح لنا معرفة المصريين للقطن ، واستخدام الكهنة له ، عكس ماكان سابقا ، الا أننا لم نجد مايؤيده فى المصادر المادية ، بل لم يوجد له اسما فى اللغة المصرية القديمة ، وما يدل على منتجاته ، واستمر الحال على هذا المنوال ، حتى بعد عام ١٩١٣ م بعدة سنوات ، حيث عثر الأثريون على قطعة نسيج من مروى مؤرخة بالعصر المروى (المساوى للعصر الرومانى فى مصر) ، جرى فحصها ، ووجدت مصنوعة من القطن ، وكان ذلك دافعا للبحث عن القطن

(11) Pline L'Ancien, Hist. Nat. Traduit et Commenté par J.Andre.Paris 1964.XIX.14.

مرة إخرى في المنسوجات ، التي تم العثـور عليهـا ، وجرى ارسال عينـة مكتشفة حديثا الى معهد شيرلى ليحوث القطن Shirley Institute في مانشستر ، بواسطه السيد/ ب ٠جن B. Gunn أ ميـن قسم المنسوجات في متحف بنسلفانيا ، وأحد المهتمين بأصول القطن ، وقـام بفحص العينة خبير المنسوجات أ٠ ج تيرنر A. . Turner وهو خبير المنسوجات القديمة المكتشفة في الهند ، وخاصة المكتشفة فـي موهنجودارو Mohenjodaro ، أقدم المناطق المكتشف فيهـا منسوجات قطنية ، الذى خلص الى نتيجه هى " أن عينات القماش القطنـى الوارد من النوبة هى من النوع الخشن جد ا ، وتشبه الأنواع البرية ، التـى وجد ت في أماكن أخرى من العالم ، وأن القطن المصنوع منه المنسوجـات المأخوذ منه العينه قطن نوبى محلى " (١٢).

---

(12) Griffith and Crowfoot , op.cit.pp.5-7.

وبالبحث الجاد فى المجموعات البردية المنشورة فيما بين عامى ١٩٠٧ م و ١٩٨٦ م ، تم العثور على ست وثائق (١٣) سنتناولها تبعا لترتيب نشرها ، تتصل بصناعة وتجاره وزراعة القطن فى مصر .

اقدم هذ ه الوثائق الست هى: P.Lond. III , 928 التى جرى تحديد تاريخها فى أول الأمر بعام ١٩٠/١٩١م (١٤) ، ثم جرى تصحيح هذ ا التاريخ الى القرن الثالث الميلادى (١٥) . وهذ ه الوثيقـــــة عبارة عن تعريفه جمركية ورد فيها كلمة تشير الى القطن وهى :

L.1. ἔριϵο ξυλον.

أما الوثيقة الثانية فهى P. and . VII , 142 وتاريخهـا يعود للقرن الثانى الميلادى او حوالى عام ١٦٤/١٦٥م (١٦) ، وهى تحوى على مراجعة ἐπισκέψις (١٧) لمساحـات

---

(13)P.Lond. III,928; P.Iand.VII.142;SB.VI. 9025,9026;P.Mich.500;O.Douch.51

من الأراضى المزروعـة ، وكان القطن ضمن المحاصيل الواردة حيث نقـــــر أ فيها :

ἅλ(λον) τόπ(ου) γεωρ(ουμένου) ὑπὸ
γεναρ(ύμιος) υἱοῦ ἁλ(λον μητ(ρος)
· [···]ο( ):,ε[ν] ἃ ἑλ(άϊνα) φυτ(ἃ)
γ κ(αὶ) φοί(νικες) κ(αὶ) ἐρεέξυλ(α)
κ(αὶ) ἐρικ(ια) 4 κ(αὶ) ἕτερα
ἀκρόδ(ρυα) , ἡ ἐπίσκ(εψις) ὁμοίως·

اذا لم تكن الوثيقة الأولى تحدد اذا كان القطن من الصـــــاد رات أو الوارد ات ، فان الوثيقة الثانية تجزم بأنه كان من المحاصيل المعتـــاد زراعتهـا فى مصـــر .

---

(14) Archiv. IV p. 554 .

(15) BL. I p . 288 .

(16) Chron. d'Eg. 45-6 (1948) p.205 .

(17) Wallace, Taxation, pp.6-9,354,36; Grund. p . 177 .

اما الوثيقتان الثالثة والرابعة ، فقد قام الأستاذ ان : يوتـــــــــى Youtie ، ووتتر Winter ، بنشرهما ضمن مجموعه بردى شجان ، الذى لم يكن قد تم نشره . (١٨)

البردية الأولى (١٩) منها عبارة عن خطاب يقول فيه مرسله " ارسل الى بأى طريقة ، وعلى أية حال ، عن طريق البريد ماقيمته ٢٠ دراخمة مـــن خيوط القطن المنسوجة ذات النوعة الجيدة الأخرى على عدم التسيـــان (نسيان هذا) لأن اخوتك لم يعد لهم ملابس خارجية (مايلبسونه) منـــذ اهترأت ملابسهم القطنية وأنت تعلم أنهم فى حاجة الى ملابسهم حيث أنهـــم دائما يعطون فى الحقول " .

---

(18) Winter, J.G.and Youtie, H.C. Cotton in Graeco- Roman Egypt. American journal of Philology 65 (1944),pp.249-258 .

(19) P.Mich.Inv.1649 = SB.VI.9025.and see , Chron . d'Eg. 45-46(1948)pp.204-205.

πά[ν]τη πάντως μοι πέμψης τῷ ἀγωγίῳ
τούτῳ ἐριοξύλου δραχμὰς εἴκοσι .σποιδαίας κρό-
κης. ἀλλ' ὅρα μὴ ἀμελήσῃς ἐπεὶ οἱ ἀδελφοί σου ἐπεν-
δύτην οὐκ ἔχουσι ἐκτριβέντων τῶν ἐριοξύ-
λων αὐτῶν, καὶ χρείαν ἔχουσι ὡς οἶδας καθὰ
πάντοτε ἐν ἀγρῷ διατρείβουσι. ἄσπασαι τοὺς
σοὺς πάντας κατ' ὄνομα. ἀσπάζεταί σε Χάρμος
καὶ Ἡρακλείδης καὶ Τανεχώτης καὶ Σαραπίων
καὶ ὁ μικρὸς Σεύθης καὶ Ταῦρις καὶ Ἀπολλωνά-

وثانى البرديتين (١٢٠)، هى عبارة عن خطاب شخصى أيضا ، رد على

خطاب آخر ، يقول فيه مرسله " لم أجد هذا المقطع من النسيج القطنى كما

كنت أريده ، اذا أردت أن تنسج من أجلك أرسل الىّ خيوط مغزولة

والمقاسات " :

οὐχ εὗρον τὸν χιτῶνα τὸν ἐριόξυλον ὡς
ἤθελον. εἰ δὲ θέλεις ὑφανθῆ-
ναί σοι ἐνθάδε, πέμψον στήμονα καὶ τὰ μέτρα. φρόντισ
τοὺ σίτου τοῦ πεμπομένου εἰς Ψῶβ-
θιν καὶ τοῦ σίτου Χαιρᾶτος. μὴ ἀμελῇς περὶ πάντων.
κόμισαι παρὰ Φατρέους Χαιρᾶτος σπυρί-
διον ἐν ᾧ φοινίκων μέτρα τρία καὶ ῥόας ν̄ καὶ ἐπιστόλιον
ὅρα οὖν μὴ ἀμελῇς αὐτοῦ.

---

(20) P.Mich. Inv. 1648 = SB.VI.9026 and see,
Chron. d'Eg. 45-46 (1948)pp.205-206 .

تاريخ الخطابين المحتمل هو القرن الثاني الميلادى ، ونتبين منهما على أمرين ، أولهما معرفة المصريين القطن وغزله ونسجه ، وثانيهما شيوع استخدام القطن فى صناعة الملابس . أما الخطاب الثانى فانه يضيف الى ماسبق ، أنه يوجد أصناف متعددة من المنسوجات القطنية حتى أن الشخص كان يتخير منها مايتلاءم معه.

والوثيقة الخامسة التى لدينا (٢١) عبارة عن خطاب شخصى من روللليوس Rullius الى أخيه جوليوس أبو للينياريوس Apollinarius يطلب فيه من أخيه أن " يرسل الأقطان البيضاء ، التى طلبها منه عندما كان معه ، الى ميتون ، لو أنها ناعمة ، حيث قال – عنها – عندما كان معه ، دعنى أرسلها من روما ، وسوف يسلمهم ، لو أنك تريد أن أرسلهم".

---

(21) P.Mich . VIII. 500 .

ومن هذه الوثيقه نتبين أن لونه الأبيض ونعومة ملمس القطن كان يجذب الناس اليه ، ويبدو وجود صنف من الملابس القطنية كانت تشتهر به روما أو متوفر بها .

أما آخر الوثائق فهي قطعة شفافة تم العثور عليها في داخل أحد المعابد في الواحة الكبيرة ، وجرى تحديد تاريخها بالقرن الرابع الميلادى (٢٢) . تبدأ بعبارة " حساب القطن " ثم يليه أسماء خمس نساء أمام كل منهن مقدار على الوجه التالى :

Λόγ(os) ἐρεόξυλα
Ταμοῦν Παοῦτε λίθ(οι) β
Τεσουῆρις λίθ(οι) β
Γυνὴ Εὐγένης λίθ(os) α
Γυνὴ Εὐπρέπης λίθ(os) α
Τρεμπαμοῦ ἀδ(ελφὴ) λίθ( ) .

---

(22) Cuvigng ,H.-Wagner,G. Les Ostraca Grecs de Douch (O.Douch) Le Caire 1985.N.51.

وناشرا هذه الوثيقة ربطا هذه النسوة بالغزل :

" Les cinq femmes de cette liste sont à n'en pas douter des fileuses de coton "

وبالتالى اعتبر المصطلح λίθος المذكور فى النص وزنا مرتبطا بالنسيج وحده ، وقالا :

" Le terme λίθος peut désigner le poids du métier a tisser " (٢٣)

ولانرى لماذا الربط ذلك بالنسيج وحده ، فقد يكون جامعات القطن من أشجاره ، مثلما يحدث حاليا ، يتم محاسبة النساء والأطفال الذين يجمعونه يوميا ، والمصطلح λίθος عبارة عن " حقد لرمي " من الحجر ، لكن ليس بالضرورة أيضا أن يكون هذا المعيار الحجرى مرتبط بالنسيج وحده ، قد يرتبط بالقطن عموما عند جمعه ، وحلجه وغزله ونسجه (٢٤) .

---

(23) Idem, p 32, and see, Wagner, G. les Oasis d' Egypte le Caire, p.29.

(24) Liddel and Scott S.V.

وملاحظ في هذه الوثائق الست أن القطن أتى تحت مسمى واحد هو ξρεόξυλον ، بينما استخدم الهنود في لغتهم كلمة كارباسا Carbasa (= Karapāsa) للتعبير عن القطن . وقد انتقلت الى الفارسية وأصبحت كيرباس (Kirpas) وفي اللاتينية كاراباسوس (Carabasus) . وهي مفردات كانت تعني أصلا الكتان الناعم . أما كلمة قطن العربية (Cotton او Coton) المستخدمة حاليا ، فهي أتت أصلا من كلمة كتان Kuttan ثم تحرفت الى كوتو Kutu وفي السريالية أصبحت كتانا Kettana ، ونقلت الى الأغريقية بكلمة خيتون Chiton التي أصبحت تعني جلبابا ، وفي العبرية كوتونت Kuttonet وهي تعني أيضا الكتان الناعم (٢٥) وبلينيوس الأكبر سماه

---

(25) Forbes , op.cit.p.44; NN . 284 , 415; Watt , op.cit . p. 570 .

فى مصر جوسبيوم Gossypium ، وقال أنه أحيانا يسمى اكسيلون Xylon وتسميه يسمى أكسيلينا Xylina وقال إيضا أنه كان يعرف فى صور الفينيقية باسم Gossympines (٢٦) وهى أصل التسمية العلمية Gossypium المستخدمه حتى الآن .

---

(26) Nat . Hist. XII , 21; XIX , 14 .